



الطقوس والعادات المرتبطة بظاهرة الموت بمنطقة تادرت،

إقليم جرسيف - دراسة اجتماعية – أنثروبولوجية

**Rituals and customs associated with the phenomenon of
death in the Tadart region, Guersif province - a social-
anthropological study**

إعداد

د. جميلة عباوي

Dr. Jamila Abawi

أستاذة التعليم العالي – كلية الحقوق - وجدة – المغرب

نجيب مزوار

Najib Mezouar

طالب باحث بسلك الدكتوراه

Doi: 10.21608/ajahs.2024.350548

٢٠٢٤ / ٢ / ٩

استلام البحث

٢٠٢٤ / ٢ / ٢٥

قبول البحث

عباوي، جميلة و مزوار، نجيب (٢٠٢٤). الطقوس والعادات المرتبطة بظاهرة الموت بمنطقة تادرت، إقليم جرسيف - دراسة اجتماعية – أنثروبولوجية. *المجلة العربية للأدب والدراسات الإنسانية*، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والأداب، مصر، ٨ (٣١) إبريل، ٣٧٧ – ٣٩٢.

<http://ajahs.journals.ekb.eg>

الطقوس والعادات المرتبطة بظاهرة الموت بمنطقة تادرت، إقليم جرسيف - دراسة اجتماعية - أنثروبولوجية

المستخلص:

تتحدث الورقة العلمية عن البنية الطقسية المرتبطة بظاهرة الموت من خلال رصد أبعادها الدينية والاجتماعية بمنطقة تادرت ، التابعة ترابيا لنفوذ عمالة جرسيف، فقد كشفت عن تنوع مذهب للممارسة الطقسية ، بهذه المنطقة ، و صمودها معضمها من التبدل والاندثار ، بفضل تشبث مجتمع الدراسة بها ، الاعتزاز بهذه الممارسة وعاداتها الممزوجة بأبعاد دينية وثقافية.

Abstract:

The scientific paper revolves about the ritual structure associated with the phenomenon of death by monitoring its religious and social dimensions in the Tadart region, which is a part of Guercif provincial . It reveals an amazing diversity of ritual practice in this region, and its resilience, most of it has changed and extincted. The community has its own pride in such customs mixed with religious and cultural dimensions.

مقدمة:

تعد ظاهرة الموت من أهم الظواهر التي استحوذت على التفكير الإنساني في كل زمان ومكان، فالتراث الإنساني مليء بالأراء والمعتقدات المتعلقة بظاهرة الموت والحياة والخلود ، وقد تجلى ذلك في مجمل العادات والتقاليد التي تورثتها الأجيال، والتي تعكس في أغلب الأحوال فلسفة المجتمع ورؤيته لطبيعة الوجود بشكل عام والوجود الإنساني بشكل خاص ، غير أن العادات والتقاليد بصورة عامة تخضع لمظاهر التغيير الاجتماعي ومنها الطقوس والعادات المرتبطة بظاهرة الموت ، التي لحقتها مظاهر التغيير بشكل واسع في السنوات الأخيرة ، ومن هنا تكمن أهمية دراسة العادات الشعبية في مجتمعنا المغربي الذي تعرض لتغييرات بنيوية عبر الأزمنة ، الأمر الذي يتطلب إجراء دراسات ترصد الواقع المتغير وتحلل الوظائف العامة للعادات والتقاليد في المنظومات الاجتماعية الجديدة ، فضلا عن أن لهذه العادات قيمة حضارية و موروثة ثقافيا لا مادي وجب الاهتمام به وحفظه من الضياع ، وهو من كان دافعا لنا توجيه الدراسة نحو الطقوس الجنائزية ، و العادات الدينية و الاجتماعية المرتبطة بها ، حيث وقع اختياري على الجماعة القروية تادرت التابعة لنفوذ إقليم جرسيف ، بحكم معرفتنا الجيدة لمنظومتها الاجتماعية والدينية التقليدية المرتبطة بظاهرة الموت وطقوسه ، خصوصا إذا علمنا أن المجتمعات القروية تميل

أكثر نحو الحفاظ على الموروث الثقافي من التغيير والاندثار بالمقارنة مع نظيرتها في المجتمعات التي تسكن بالمدينة، لذلك سنحاول ملامسة إشكالية الدراسة في هذه الورقة البحثية انطلاقاً من المحاور التالية :

المحور الأول : الجانب المنهجي للدراسة .

سنقوم بتحديد إشكالية الدراسة و الأسئلة المرتبطة بها و فرضياتها و الأهداف التي تسعى إليها ، والأهمية التي ستضيفها هذه الدراسة ، و المنهجية المتبعة في هذه الدراسة من خلال تحديد المجتمع الأصلي والعينة والمنهج المعتمد في مقارنة الظاهرة المدروسة والأدوات الموظفة فيها ، كما سنقف عند بعض المصطلحات المهيكل للدراسة .

المحور الثاني : رصد الطقوس والعادات المرتبطة بظاهرة الموت ووظائفها

المحور الثالث : نتائج الدراسة :

خاتمة: خلاصة للظاهرة المدروسة والآفاق التي تفتحها في مجال البحث العلمي لإغناء الموضوع .

المحور الأول : الجانب المنهجي للدراسة .

١ - إشكالية الدراسة :

يعيش الإنسان صراعاً مريراً مع الحياة ، وبمقتضى هذا الصراع نجده يجتهد ويكد من أجل تأمين حياته و حياة أبنائه بشتى الوسائل من خلال شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تربط بالعديد من المؤسسات الاجتماعية كالأُسرة و العمل ، والهدف تكوين كيان اجتماعي يحظى بالاحترام داخل المجتمع ، لكن في نهاية هذا الإنجاز يجد نفسه هذا الكائن الاجتماعي الذي هو الإنسان ، مرتبطاً بشكل حتمي بمصير الموت الذي يحطم كل ما بناه من تحصين مادي ومعنوي لسنوات عديدة ، وما يهنا من دراسة ظاهرة الموت ورصد التقاليد والعادات وأبعاده الاجتماعية والثقافية و كشف أهم وظائفها ، لذلك، فالأسئلة المطروحة حول إشكالية الدراسة تدور وفق الآتي :

ماهي مميزات الممارسة الطقسية المرتبطة بظاهرة الموت في منطقة تادرت ؟ ، وإلى أي حد حافظت هذه المنطقة على البنية الطقسية و ومعانيها الاجتماعية والثقافية والدينية من التبدل والتغير ؟ و ما هي الفئات الاجتماعية الأكثر تمسكاً بهذه الطقوس والعادات ؟ وهل تختلف هذه البنية الطقسية من طبقة اجتماعية لأخرى ؟

٢- فرضيات الدراسة :

للفرضية دور مهم في ترشيد البحوث العلمية ، لأنها تضع البحث في إطار محدد ، يستطيع من خلاله الباحث التقيد بخطوات أساسية للوصول إلى نتائج علمية صحيحة لذلك سنحاول في هذه الدراسة التحقق من الفرضيات التالية :

الفرضية الأولى : تتميز الطقوس والعادات المرتبطة بظاهرة الموت بمنطقة تادرت ، بتنوع معانيها ودلالاتها الاجتماعية والدينية ؛

الفرضية الثانية : حافظت منطقة تادرت على المميزات و المعاني الاجتماعية والدينية للطقوس والعادات المرتبطة بظاهرة الموت .

وتتفرع عن هذه الفرضية مجموعة الفرضيات الفرعية ، وهي كالتالي :

■ تختلف الطقوس الجنائزية باختلاف الطبقات الاجتماعية التي تنتمي إليها الأسر.

■ تمسك فئات العمرية المسنة بالتقاليد والعادات أكثر من باقي الفئات العمرية الأخرى ، كما تعد النساء الأكثر تمسكا بالتقاليد المرتبطة بظاهرة الموت أكثر من الرجال .

٣ : أهداف الدراسة :

نهدف من هذه الدراسة الميدانية رصد العادات والتقاليد المرتبطة بظاهرة الموت من خلال السياقين الاجتماعي والديني الذي تدور في فلكهما وفهم وتفسير أشكال التعبير عن الحزن وما يرافقها من تصرفات وسلوك مادي يمارسه أقارب المتوفى أفرادا وجماعات و تتبع التغييرات التي طرأت على تلك الطقوس ومعرفة ما ظل راسخا منها على التبدل والتحول، وكذلك الوظائف التي تؤديها هذه الطقوس والمراسيم بمجتمع الدراسة وكذلك

٤ - أهمية الدراسة :

فمنذ بداية التاريخ نجد أن الإنسان يهتم بالموت ويحاول بشتى الوسائل حماية موته حسب اعتقاده من عذاب الآخرة ، وذلك عن طريق القيام بمراسم وطقوس محددة يحرص على تنفيذها بدقة عالية مهما كان المجتمع الذي ينتمي إليه بدائيا، فهي تقوم بوظيفة محددة ، حيث نجد هناك اعتقاد قوي بجدوى هذه المراسيم والطقوس في تحقيق الراحة والطمأنينة والخلود للميت في حياة الآخرة ، وقد لاحظنا ندرة دراسات حول هذه الظاهرة ، فقررنا خوض هذه التجربة بشكل مشترك ، والهدف يتمثل في إغناء الجانب المعرفي في الموضوع ، وكذلك تقديم مادة علمية للمهتمين بالثقافة اللامادية بمنطقة تادرت .

٥ : منهج الدراسة :

اعتمدت في هذه الدراسة المتعلقة بالطقوس المرتبطة بالموت على مناهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، والتي يمكن تعريفها وفق مايلي :

الأنثروبولوجيا : تعرف على أنها علم مختص بدراسة الإنسان وثقافته قد قسم الأنثروبولوجيون هذا العلم إلى ثلاث فروع أساسية - حسب نظرتهم إلى الإنسان - على الشكل التالي :

النظرة إلى الإنسان باعتباره كائن اجتماعي بطبعه في جماعات مختلفة ساهم في ظهور فرع الأنثروبولوجيا الاجتماعية ؛

● النظرة إلى الإنسان على أساس أنه حامل للثقافة وناقل لها عبر الأجيال ساعدت على ظهور فرع الأنثروبولوجيا الثقافية (فاروق أحمد مصطفى ومحمد عباس إبراهيم : الأنثروبولوجيا الثقافية) ، ويعتمد هذين الفرعين بشكل كبير على المنهج الوصفي التحليلي وهو أحد أشكال التحليل والتفسير العلمي المنظم، لوصف ظاهرة ما أو مشكلة معينة، لتصويرها كمياً أو كيفياً عن طريق جمع البيانات لغرض إخضاعها للدراسة الدقيقة ؛ حيث وقع اختياري على ظاهرة الموت ، في محاولة لوصف العادات والتقاليد المرتبطة بهذه الظاهرة ورصد أبعادها الاجتماعية و النفسية ، وكل هذا من أجل التعرف مدى ثبات هذه العادات أو تغييرها في مجتمع البحث .

٦ - حدود الدراسة :

أ- الحد المكاني: أجريت الدراسة بمنطقة تادرات التابعة ترابيا لعمالة جرسيف ؛

ب- الحد الزمني: أجريت الدراسة الميدانية خلال السنة ٢٠١٩ ، قبل ظهور جائحة كوفيد ١٩ ؛

ج - الحد الموضوعي : من خلال تسليط الضوء على الطقوس والعادات الاجتماعية والدينية المرتبطة بظاهرة الموت بمنطقة تادرت .

٧ - المجتمع الأصلي وعينة الدراسة :

بالنظر لطبيعة الافتراضات التي تشكل تصورات أولية لتوجيه سير الدراسة ، فقد تم اختيار عينة قصدية من حيث طبيعة الأفراد وخصائصهم العمرية والمستوى التعليمي والاجتماعي ، ومكان الإقامة ، وقد أجريت هذه الدراسة على عينة مكونة من ١٠ أسرة ، اختبرت فاجعة الموت ، وشاركت حزن أحد أفرادها أو جيرانها ، كالأئمة وحفار القبور ، وقارئ القرآن، وبعض النسوة والرجال من كبار السن، وبعض الشباب،

وكان اختيار بعض كبار السن كونهم من حفظة التراث وشاهدين على التغيرات الحاصلة على الظاهرة المدروسة . أما اختيار بعض الفئات الشابة يرجع بالأساس ، كونها فئة فاعلة في التغيير ، وسيعطينا فكرة عن العادات والتقاليد الراسخة عن التغيير ، وأخرى خضعت للتبدل والتغير أو الاندثار . أما المجتمع الأصلي الذي وقعت الدراسة الميدانية، فهو يتميز بالخصائص التالية :

أ- الموقع الجغرافي :

تقع جماعة تادرت على الطريق الوطنية رقم ٦ على بعد ٤٣ كلم شرق مدينة تازة وهي تبعد ب ٢٢ كلم عن مدينة جرسيف إلى الغرب. وتم

إحداثت جماعة تادرت سنة ١٩٩٢ على إثر التقسيمات الإدارية التي شملت جماعة أولاد رحو تقدر مساحتها ١١٢٣ كلم ٢ ، وهي عبارة عن هضاب و سهول جافة على ارتفاع ما بين ٤٠٠ م و ٤١٠ م عن مستوى سطح البحر . يحدّها :

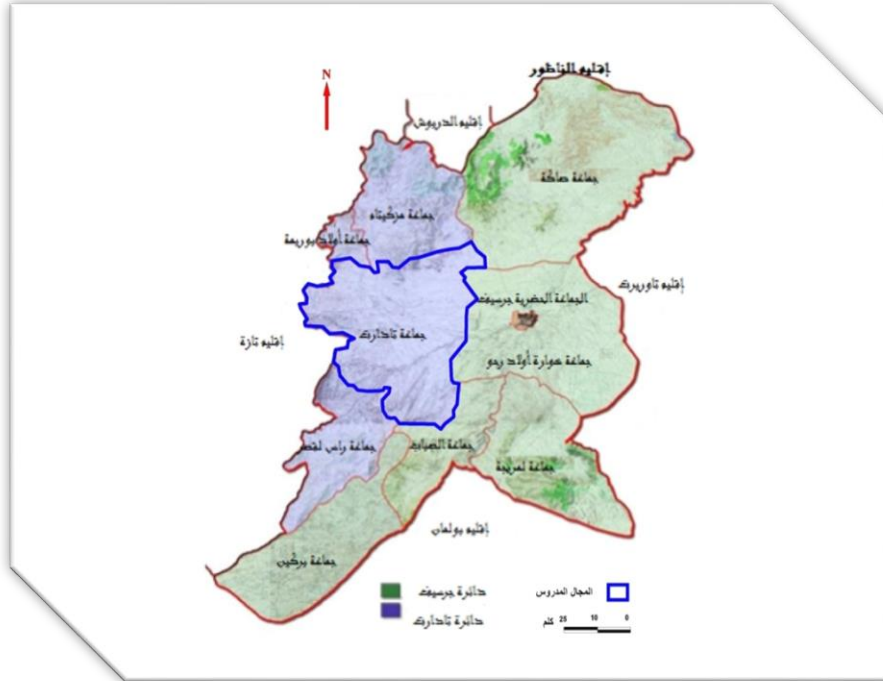
- - شمالا : جماعة صاكا و جماعة مزكيتام .
- - جنوبا : جماعة رأس القصر و جماعة الصباب .
- - شرقا : جماعة هواره أولاد رحو .
- - غربا : جماعة كلدمان و جماعة مكناسة الشرقية .

وتخترقها من الغرب مجموعة من الأودية الموسمية أشهرها واد ا مسون وواد الكطاف ، ومن الجنوب واد مللو الذي ينبع من الأطلس المتوسط . ويتكون مركز الجماعة من ضيعات فلاحية وزعت على صغار الفلاحين بعد الاستقلال ، مساحة كل ضيعة خمس هكتارات ، تسمى (الرانات) تسقى عبر قناة للري من سد تلي على واد مللو ، معظمها مغروس بأشجار الزيتون . وباستثناء الأجزاء الوسطى التي لا تشكل إلا ربع مساحة الجماعة ، يمارس معظم السكان نشاطا فلاحيا بسيطا يعتمد على الرعي والزراعات البورية ، التي لا تكفيهم ذاتيا في المواسم الجافة .

ب : السكن و السكان :

يتجمع سكانها بالإضافة إلى المركز في مداشر ودواوير متناثرة يصل عددها ٦١ دوار ، أبرزها دوار السويهلة في الجنوب الغربي على مسافة ٢٠ كلم من المركز ، والصفصافات على بعد ١٠ كلم ، وقصبة امسون ٢٠ كلم يقدر عددهم حسب إحصاء ٢٠١٤ ب ٢٠٧٧٦ نسمة منهم ٤٢٠٤ سكان نشيطين . تصل الكثافة السكانية إلى ١٦.٧٦ ن/كلم ٢ ، ونسبة الخصوبة ٧% ، ونسبة الزيادة الطبيعية ٠.٨ % معظم السكان يتكلمون العامية المغربية العربية و أمازيغية ، قد أبدع السكان هذه المنطقة - بفضل هذا التنوع اللغوي - أشكالا إبداعية رائعة تمثلت في الأغاني الشعبية والأمثال و الزجل... وغيرها (مجلة الجماعة القروية ، تادرات ؛ ٢٠١٧)

خريطة المجال المدروس



٧- أدوات الدراسة الميدانية :

تبنينا مجموعة الأدوات لجمع بيانات الدراسة الميدانية ، التي تتسجم مع موضوع الدراسات السوسيو انثروبولوجية ، وهي كالتالي :

- المقابلة المفتوحة : وتمت بطريقتين : مقابلة مباشرة اتصفت بطابع الحوار المفتوح الموجه من قبل الباحث ، حيث تطرح الأسئلة ويجيب المبحوث عنها مباشرة .
- المقابلة غير المباشرة: يفسح فيها المجال المستجوب ليقول ما يشاء دون مقاطعة .

كما أخذت المقابلة شكلين أساسيين ، فمنها ما كانت مقابلات فردية ومنها ما كانت مقابلات جماعية للتأكد من صدق المعلومات، ومدى التطابق الحاصل بين أجوبة المبحوثين، وهذا ما يساعد على استنباط معايير الصحة والخطأ بعيدا عن الغايات الشخصية . كما اعتمدت في هذه الدراسة على المبحوثين من كبار السن للحصول على العادات القديمة المرتبطة بظاهرة

الموت بوصفهم شاهدين على التغيير الحاصل ، فضلا عن بعض الباحثين من الشباب باعتبارهم فاعلين في هذا التغيير .

● الملاحظة المباشرة للظاهرة موضوع الدراسة : تعد أداة هامة لفهم الظاهرة فهما دقيقا من خلال رؤيتها بالعين المجردة والوقوف على كثير من التفاصيل حول الظاهرة المدروسة وتجنب السؤال عن كل شيء يتعلق بالموت وطوقسه .

وتعد هذه الأدوات من الطرائق التي تصلح لهذا النوع من الدراسات السوسيو انثروبولوجية ؛ لأنها مبنية على المنهج الكيفي أكثر من اعتمادها للمنهج الكمي .

٨- المفاهيم المهيكلية للدراسة .

إن أول عمل سنبدأ به هذا البحث هو تحديد المفاهيم والمصطلحات، لأنه يعد عملا ملزما وملحا، لأي باحث ودارس يرغب مقارنة أي ظاهرة ثقافية أو فكرية في أي علم من العلوم. فالتحديد المصطلحي للمفاهيم يشكل القاعدة والأساس الذي يقف عليه الباحث على اعتبار أن المصطلحات شكلت المدى التاريخي سنة مشتركة بين المهتمين بأي علم من العلوم ومن هذا المنطلق شكل تحديد المصطلحات عملا مألوفا وسلوكا محمودا في كتب علمائنا القدامى. وهذا ما سنحاول من جهتنا توضيحه في حدود ما تسمح به إمكاناتنا وما يسمح به المقام.

١- مفهوم الدين :

أ : الدلالة اللغوية :

الدين بكسر الدال المهملة له معان واستعمالات كثيرة في المعاجم اللغوية ، أهمها :

العدل والشأن والحال ، يقول ابن منظور (جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ج ٥٥) "والدين : العادة والشأن ، تقول العرب : ذلك ديني وديني ، أي عادتي ". أما أحمد بن فارس بن زكريا فيقول : فأما قولهم أن العادة يقال لها دين ، فإن كان صحيحا فلأن النفس إذا اعتادت شيئا مرت معه وانقادت له .
ب : الدلالة الاصطلاحية :

يعرف الجرجاني الدين (١٩٨٥م) : بقوله "الدين وضع الألهي يدعو أصحاب العقول قبول ما عند الرسول ﷺ . والدين والملة متحدان بالذات مختلفان بالاعتبار فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى دنيا ومن حيث أنها تجمع تسمى ملة ومن حيث يرجع إليها تسمى مذهبا " .

مفهوم الطقوس :

يعرفها عبد الرحيم بوهاها ،(العبور في الإسلام ، ٢٠٠٩) في الدلالة اللغوية عرفها تشتق كلمة طقس Rite من الكلمة اللاتينية Ritus "في مقابل اللفظ العربي " المناسك أو الشعائر" أما الدلالة الاصطلاحية ف"تعني تقاليد وعادات مجتمع ما كما تعني كل أنواع الاحتفالات، والمراسيم التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي، وهي خلفت لماض غامض غالباً لكنه معناه عند الذين يستخدمونه على أنه فعل ديني ، كما أنها عبارة عن احتفالات ناطقة باعتقادات ما وراثية تتصف بال تكرار في أدائها وبالثبات في مكوناتها وعناصرها" (بوهاها ، العبور في الإسلام ، ٢٠٠٩) .

وتتدرج الطقوس في الحياة الاجتماعية بعودة الظروف التي تستدعي إعادة القيام به ، لتأدية مهمة وإعطاء نتيجة عبر تلاعبه ببعض الممارسات لاجتذاب العقول ، وجعلها تؤمن بها عبر استحضار البعد الديني غير أن بعض الطقوس اليوم تحولت من ممارسة الطقوس إلى تطبيق الممارسة ، فعلى سبيل المثال لا الحصر طقس الختان الذي تحول من طقس ديني إلى مظهر خارجي للتباهي .

٢ - مفهوم الموت :

ب : في الدلالة اللغوية : في المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٢) الموت ضد الحياة ، ويطبق الموت ويراد به ، ما يقابله العقل والإيمان ، نحو ما في التميزل العزيز .

ب - في الدلالة الاصطلاحية: يعرفه الوائلي ، (عبد الجبار ١٩٩٢) ، بأنه "هو مفارقة الروح للجسد، وتوقف أعضاء الجسم عن الحركة والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والموت نهاية كل حي وحياة كل ميت " .

٤ - مفهوم الجنائز :

أ : في الدلالة اللغوية : جاء في معجم الوسيط : " أن الجنازة : النعش والميت وهما مع المشيعين "

ب : في الدلالة الاصطلاحية يقول الأصمعي : " الجنازة بالكسر هو الميت نفسه ، و العوام يقولون إنه السرير ، وتقول العرب جنازة أي ميتا " (مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٢) .

المحور الثاني: الممارسة الطقسية المرتبطة بظاهرة الموت ووظائفها المتعددة

١ - طقوس الموت بمنطقة تادرت :

أ : الاحتضار وتوديع الميت للحياة :

على إثر مرض الإنسان يصبح طريق الفراش، يأمل يشفى منه، لكن عندما يشعر بعدم قدرته على التماثل للشفاء ليكون على يقين من أنه سيفارق هذا العالم الذي نشأ فيه، فيطلب رؤية أقارب العائلة وأصدقائه، فتلبي العائلة كل طلبات هذا المريض من أكل وشراب، وفي هذه الفترة يطلب السماح من كل من يدخل على رؤيته لزيارته ليتمكن من الرحيل بسلام قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، حيث يقوم أفراد أحد الأصدقاء أو فرد من أقاربه، بتذكيره بلفظ الشهادة، والقيام بإغلاق فم وعين الميت، لتكون آخر كلامه، ويلاحظ بعض الهديان الصادر عن المحتضر، فيردد كلاما غير مفهوم.

وتعتبر مسألة التذكير بالشهادة والقيام بإغلاق فم وعين الميت، من الأمور، التي يحرص عليها أفراد العائلة، لتسهيل خروج المحتضر ولضمان انتقاله إلى العالم الآخر بأمان.

ب : تحضير الميت للغسل :

في هذه المرحلة يظهر التخصص، فالغاسل للميت الذكر، والغاسلة للميتة الأنثى، وهذا التخصص تنفيذا لأحكام الشرع الإسلامي، ويكون غسله بالماء والصابون وتستعمل بعض العطور، حيث يفرك جسم الميت وينشف الميت جيدا، وقد يسمح لأهل الميت حضور عملية الغسل، وإن كان في كثير من الأحيان يبعدون حرصا على مشاعرهم، وتقليد غسل الميت وطقوس المحيطة به أهمية كبيرة، إذ أن الميت سينتقل إلى عالم آخر وحياة أخرى، لذلك يجب أن يلاقى خالقه بجسد طاهر. ويشترط في صحة الغسل النية وطهارة الماء وإزالة النجاسة عن البدن الميت.

ج : عملية التكفين والتشييع :

الكفن واجب عند جميع المذاهب الإسلامية، والكفن عبارة عن قماش ذات لون أبيض تلف بها جثة الميت وبعد الانتهاء من عملية التكفين ومن ثم ينقل جثمانه في موكب مهيب إلى المسجد للصلاة على الميت (ة)، حيث يحضر رجال القرية وبعض الأطفال، وتجذر الإشارة إلى إن موعد الدفن خاضع لمجيء أقارب الميت، وموعد وصولهم في عصرنا الحالي، وليس لأوقات الصلاة كما كان في قديما، وذلك من أجل إلقاء نظرة أخيرة على الميت وتوديعه من قبل أبنائه وذويه، ومن هنا تظهر الوظيفة الاجتماعية للموت حيث يجمع شمل العائلة ويعيد من انقطع من علاقات وصلات بين الأقارب الأحياء.

د: الصلاة على الميت : "صلاة الجنازة" .

يحض الإسلام على صلاة الجنازة على المسلمين على اختلاف مذاهبهم، وأن الصلاة لاتجوز إلا بعد الغسل والكفن والصلاة تكون بأن

يوضع الميت مستلقيا على ظهره ويقف المصلي وراء الجنازة باتجاه القبلة وبعد ذلك تتم الصلاة كما هي معروفة عند الأئمة . أما الشهيد لا يغسل ولا يكفن ، بل يدفن بثيابه .

هـ : الدفن:

بعد الصلاة تنتقل الجثة إلى المقبرة في نعش خشبي يحمله أقارب ميت فقط ، ويذهب معه أفراد القرية ، وخاصة جيرانه ، ويأتي هذه المرحلة بعد أن القبر مجهزا مسبقا ، ويكون محفورا على عمق مترين وعرض متر واحد، ويكون حفر هذا القبر بتعاون مع الجيران وأقارب الميت (ة) بدون مقابل، كما هو الشأن بالنسبة بالنسبة لعمليتي الغسل والتكفين، وهوما يدل على أهمية التضامن بين عائلة الفقيد وأهل القرية، وتتم عملية الدفن بأن ينزل أحد الأشخاص إلى القبر ويستقبل الجثة ويضعها في القبر على جانبها الأيمن وبشكل مواجه للقبلة، وقد تضع بعض العائلات تحت الجثة فراشا أو بعض ممتلكات الميت التي يكون قد أوصى بها قبل وفاته احتراما لرغبته ، وبعد إنزال الجثة في القبر يتم وضع فوقها "قطعة خشبية مسطحة" لمنع تسرب التراب والحيلولة دون وصول الحيوانات المفترسة للجثة التي تسعى إلى نبشها والتهامها، ثم يتم ردم التراب عليها ، و الأخير تتلى آيات من الذكر الحكيم مع الدعاء للميت بالمغفرة والرحمة .

و- العزاء " في منزل الميت"

العزاء يعني الصبر، والتعزية تعني التصبير والحمل على الصبر، بذكر ما يسلي المصاب، ويخفف حزنه، ويهون عليه مصيبتة .

وينبع حرص أفراد القرية على تقديم واجب العزاء لدافع ديني الذي تحت عليه السنة النبوية والدافع الاجتماعي من خلال مشاركة الجماعة، في المصاب الجلل والألم الذي أصاب أقاربه وأبنائه وعائلته وتعد طقوس العزاء فرصة الالتقاء والتآزر ونسيان الاختلاف ، على اعتبار أن الموت ظاهرة ستلحق الجميع دون استثناء ، وهذا ما يعزز التماسك الاجتماعي والتضامن الإنساني ،

ز- التجهيز للمأثم :

يحرص أقارب الميت وجيرانه بالقرية على تجهيز المأثم فور إعلان الوفاة ، ومن التجهيزات نجد في العصر الحاضر تجهيز خيمة أمام منزل الفقيد لتلقي العزاء ، كما يعمل أقارب الميت والجيران وبعض سكان المنطقة على شراء كل المواد الغذائية لإكرام المعزين ، خصوصا إذا كان أهل الفقيد من أسرة معوزة ، وهذا التآزر المادي والمعنوي لا زال حاضرا لحد الساعة بمنطقة تادرت .

ح - طقوس تلقي العزاء:

يبدأ المعزون بالوفود إلى دار المتوفى ، فيبدأون بالسلام على أقارب الميت وترديد " عبارات الله يرحمه ، الله يعظم الأجر " بعد ذلك يطلب من المعزين الجلوس وفي أحيان كثيرة يطلب من أحد الجالسين من أهل التخلي عن مكانه لأحد الضيوف لعدم وجود مكان يجلس فيه، بمجرد دخولهم بيت المرحوم توزع عليهم التمر، ويعتبر واجب التعزية في القرية إلزاميا من أقارب الميت، وإذا تخلف أحدهم سيعرضه للتوبيخ والمقاطعة من قبل أقارب الميت. كما يحتم على النساء أيضا تقديم واجب العزاء ويحتم عليهم ارتداء الملابس المعبرة عن الحزن ، ولايجوز وضع أي نوع من أنواع الزينة كالحلي والحناء وغيرها ؛ لأن الاهتمام بالزينة ينظر إليه من قبل أفراد الميت انتقاصا من مكانة المتوفى وعدم تقدير لحزن أقاربه .

وقد أظهرت هذه الدراسة الميدانية ظهور تصرفات خصوصا عند النساء، فعند قدومهن لبيت المتوفى يبدأون بالثرثرة والأحاديث الجانبية ، وينسون أمر الوفاة ومشاركة أهل المتوفى في أحزانهم وعدم الاستماع لتلاوة القرآن الكريم ، وهذه من السلبيات المرصودة في هذه الدراسة الميدانية .

ويتلى القرآن الكريم ، في الأيام الأولى من الوفاة، باستمرار من قبل قراء الذي يطلق عليهم اسم "الطلبة " وهذا الطقس لازال حاضرا إلى اليوم ، ويستغل حضورهم ، من قبل المعزين لكي يطلب منهم الدعاء لذويهم من الموتى، ومنهم من يقدم مقابلا ماديا لهذا الدعاء أو ما يسمى عندهم ب"المعروف " في العامة المحلية .

ط - تقديم الطعام للمعزين خلال أيام الحداد:

قلنا سابقا بأن أهل الفقيد يجهزون المأثم بإحضار، جل المواد الغذائية لأكرام المعزين ، نفس الدور يقوم به أهل القرية لأهل الميت ، خصوصا إذا كان من أسرة فقيرة .

يتم ذبح كبش أو ثور في هذه المناسبة إذا كان أهل الميت من عائلة غنية وغالبا ما تكون نوعية الطعام المقدم للمعزين عبارة عن اللحوم والكسكس، و"السفة" وتأتي في إطار الاحترام والتقدير للمعزين وبمثابة شكر لهم لقيامهم بواجب العزاء ، فضلا عن كون الاستضافة تعد ركنا مهما في نجاح مراسم العزاء وظهورها بمظهر لائق بأهل الميت وتدوم هذه المراسم ثلاثة أيام كحداد على الميت .

أما في العصر الحاضر نلاحظ المبالغة في الأكل المقدم للمعزين من خلال ظهور مأكولات جديدة ، مثل المشروبات وغيرها .

ي - الاحتفال بذكرى الأسبوع: " السابع "

يعد الاحتفال بالذكرى الأسبوع أو ما يسمى بالعامية عند مجتمع البحث " السابع " عادة قديمة لربط الاتصال بالميت من جديد ، حيث تتم قراءة آيات من الذكر الحكيم من قبل " الطلبة " في وقت العشاء ، ويحضرها فقط أقارب الميت دون غيرهم من الناس فتقدم لهم الطعام بهذه المناسبة ، ويرفع الدعاء بالرحمة للميت والدعاء بالصالح والفلاح لأهله . وفي هذا اليوم يقوم أقارب الميت بتقديم الكسكس باللحم للأطفال الصغار بالقرية وخاصة أبناء الجيران ، وهذه العادة لازالت حاضرة إلى اليوم .

ك - الاحتفال بذكرى الأربعين:

رغم كون الدين الإسلامي لم يشر إلى الاحتفال بذكرى الأسبوع أو الأربعين إلا أن أهل المنطقة يحتفلون بالذكرتين معا وتختلف ذكرى الأربعين عن ذكرى الأسبوع ، ففي ذكرى الأربعين توجه الدعوة بشكل عام لعائلة الميت وغيرهم من أهل القرية . وبينت هذه الدراسة أهل المنطقة يحتفلون بهذه الذكرى اعتقادا منهم أن روح الميت تلازم البيت حتى يوم الأربعين ، وفي هذه الذكرى يتم تلاوة القرآن الكريم رفع أكف الدعاء بالرحمة للميت من قبل " الطلبة " . وطيلة هذه المدة يحرم التزين كوضع الحناء بالنسبة للنساء و تسريح الشعر وغيرها والاحتفال كالزواج أو الخطوبة ، لكن ملاحظتي للظاهرة المدروسة كشفت أقلية تخرق هذا التقليد من خلال قيامها باحتفالات زواج وختان وغيرها ، خلال الأيام الأولى للوفاة ، ودون مراعاة لمشاعر أهل وأقارب المتوفى .

ل - الاحتفال بالذكرى السنوية:

هذه العادة لم تظهر إلا مؤخرا وتهدف هذه العادة لإحياء ذكرى الميت محاولة من أهله لإظهار أهميته رغم رحيله كما تجدد الاتصال به من خلال الدعاء به بالغفران والرحمة، وتحدث بشكل كبير في الأسر الميسورة .

ف - زيارة قبر الميت :

من مظاهر الاتصال بالميت زيارة قبره ، خصوصا في الأعياد والمناسبات الدينية مثل ليلة القدر في شهر رمضان المعظم وعيد الفطر وعيد المولد النبوي ، حيث تتم تلاوة القرآن الكريم عليه ، والتصدق عليه بالمال وبعض المواد الغذائية أو الألبسة للفقراء والمحتاجين .

٢ - وظائف الطقوس والعادات المرتبطة بالموت :

لطقوس الموت وظائف متعددة نحددها في ما يلي :

- الوظيفة الدينية : تستمد هذه الطقوس المتعلقة بالموت وعاداتها شرعيتها من تعاليم الدين الإسلامي ، فالقيام بها - خصوصا غسل الميت والتكفين والصلاة عليه -

من تعاليم الدين الإسلامي فالعمل بها من باب نيل الثواب وعدم القيام يعد تخليا عن أحكام هذا الدين ، كما أن تعد الطقوس بمثابة الإخضاع لقدرة الله عز وجل والإيمان به و تذكر المؤمن بالآخرة والعقاب والثواب .

● الوظيفة الاجتماعية : تعبر ظاهرة موت من المناسبات، التي يحضر الجانب الاجتماعي بشكل قوي من خلال التآزر مع أهل الميت وتقديم العون والمساعدة من تعزية و تجهيز المأتم و غسل ثم دفن وتشيع، كما أن مناسبة الموت تشكل فرصة كبيرة لتناسي المشاكل والخلافات بل أن هذه الظاهرة تشكل فرصة لجمع الشمل وتعزيز الروابط .

● الوظيفة الثقافية : تشكل هذه الطقوس فرصة للتميز الثقافي الذي يميز منطقة تادرت عن غيرها من المناطق بالمغرب ، حيث ظلت هذه الممارسة الطقسية صامدة بشكل كبير عن الاندثار والتغيير، وخاصة عند الفئات المسنة بمنطقة تادرت .

المحور الثالث: نتائج الدراسة .

خلصت الدراسة الميدانية حول ظاهرة الموت والطقوس والعادات المرتبطة بها ، بالعديد من الاستنتاجات تؤكد صحة الفرضيات التي انطلقنا منها في هذه الدراسة :

- تتميز الطقوس والعادات المرتبطة بالموت بمنطقة تادرات بالتنوع والغنى ؛
- تحمل البيئة الطقسية للظاهرة المدروسة أبعاد دينية واجتماعية وثقافية ؛
- أكدت الدراسة أهمية الرابطة القوية بين الجيران في منطقة تادرات ودورها في تقديم أشكال الدعم المادي والمعنوي لأقارب الميت ؛
- أصبحت مسألة التضامن الاجتماعي وأشكال التعبير عن الحزن مقتصرًا عن أهل الميت بعد أن كان في العهد القريب يعم القرية بأكملها ، إذن لوحظ تراجعًا في الاهتمام بالموت خارج دائرة الأسرة التي أصابها الحزن بموت أحد أفرادها . فالיום نجد أسرة تحتفل بالأفراح كالأعراس و بجانبها أسرة أخرى لديه احتفالات جنازية في غياب إحساس تام بالأسرة المكلومة وتقدير مشاعرهم؛

- بينت هذه الدراسة أن طقوس الموت بدأت تختلف شيئًا ما بالنسبة للأسر الميسورة خصوصا في استضافة المعزين، حيث تتكلف جهة معينة في تقديم الطعام والشراب لهم خصوصا في المدينة عكس القرى ، التي تظل وفيه لهذه الطقوس، وذلك لاعتبارات دينية وقبلية صرفة ؛

- كشفت هذه الدراسة من خلال المقابلات المباشرة مع كبار السن ،أن هذه الفئة الأكثر حفاظا على طقوس الموت من خلال التثبث بعدد أيام الحداد وعدم إظهار الزينة وأشكال الفرح ؛
- يبدو تمسك النساء بمظاهر الحداد أكثر من الرجال في هذه القرية، خصوصا تلك اللواتي فقدت زوجها حيث يفرض عليها الشرع ملازمة بيت الزوجية ثلاثة أشهر ، كما تتمسكن ، طيلة أيام الحداد ، بلباس الحداد للدلالة على الحزن ، وتجنب مظاهر التبرج والزينة وخصوصا وضع الحناء ؛
- بينت الدراسة أن طقوس الحزن ومظاهره تختلف باختلاف مكانة الشخص في العائلة وسنه، فمظاهر الحزن على الأخ الشاب أو الابن بالنسبة للأب أو الأب تختلف عن مظاهر الحزن بالنسبة للأب أو الجد أو الجدة الكبار في السن.

خاتمة :

لقد استمدت الطقوس والعادات المرتبطة بظاهرة الموت "بمنطقة تادرت" مشروعيها من الشرع الإسلامي ، من جهة ومن المحيط الاجتماعي من جهة أخرى ، حيث التعبير عن مشاركة الجميع لمصاب أهل الميت بتقديم العزاء لهم ، وتشجيعه والصلاة على روحه وتقديم العون المادي لهم في محاولة للتخفيف من أعباء تكاليف الوفاة ، وقد حاولت هذه الطقوس تحقيق نوع من التوازن والتوافق بين ما ينتجه المجتمع للتعامل مع ظاهرة الموت وبين ما يفرضه الشرع في هذا الإطار . غير أن هذه الدراسة كشفت مجموعة من الأشياء نعتبرها بمثابة أفاق جديدة في البحث العلمي المعمق ، في هذه الظاهرة من الناحية السوسولوجية والأنثروبولوجية، ومنها ما يتعلق بالمبالغة في أشكال التعبير عن الحزن وكذلك مسألة الاحتفالات التقليدية ، التي تبتدأ بالاحتفال باليوم الثالث إلى ذكرى الأسبوع ثم ذكرى الأربعين ، ودون أن ننسى مسألة الاتصال بالميت من خلال زيارة قبره والقيام بممارسات طقسية غريبة من إشعال الشموع والبخور... وغيرها، وكل هذا من أجل - وفقا للمجتمع الدراسة - خلود النفس الإنسانية وبقاء ذكراها من جهة وتحقيق الراحة والطمأنينة للميت من جهة أخرى.

لقد كشفت هذه الدراسة الميدانية التغيرات التي بدأت تمس البنية الطقسية لمجتمع الدراسة وبخاصة لدى الأجيال الحالية ، هذا إذا علمنا أن الدراسة وقعت على مجتمع قروي السمة الغالبة عليه الأمية والبساطة ، إذن فما هو واقع الممارسة الطقسية بالمجال الحضري حيث التكنولوجيا فعلت فعلها في شبابها وشيبيها ؟

البيبلوغرافيا

■ المصادر

جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ج٥٥، دار المعارف، القاهرة، مادة "دين"
، المجلد ٢ ،

محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥،
المعجم الوسيط، باب الجيم، القاهرة، سنة ١٩٧٢،

■ المراجع

الوائلي، عبد الجبار، العقل والنفس والروح، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٢،
فاروق أحمد مصطفى ومحمد عباس إبراهيم : الأنتروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة،
الأزارطة، مصر،

عبد الرحيم بوهاها، "طقوس العبور في الإسلام": دراسة في المصادر الفقهيّة"
الطبعة الأولى، ٢٠٠٩،